

ماهية الشعر ووظيفته في التراث المغربي

أ . عبد الله خنشالي

قسم اللغة العربية. جامعة باتنة

ملخص

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على إسهامات المغاربة في النقد الأدبي خلال القرن الرابع الهجري، وذلك من خلال عرض ماهية الشعر ووظيفته عند عبد الكريم النهشلي، أحد أعلام المغرب في مجال الأدب والنقد. عرضت ذلك من خلال كتابه الممتع في علم الشعر و عمله.

تضمن البحث مقدمة وتمهيدا تم فيه عرض ماهية الشعر في المعاجم القديمة والحديثة، ثم ماهية الشعر عند مسلمي صدر الإسلام، ثم ماهية الشعر ووظيفته من خلال استقراء نصوص الكتاب. لينتهي البحث بخاتمة.

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها أن النهشلي ناقد بصير، رأى الشعر فنا ممتعا هادفا، كما أن كتابه الممتع موسوعة أدبية جديرة باهتمام ذوي الاختصاص.

Résumé:

Cette recherche met l'accent sur les participations des maghrébins dans la critique littéraire pendant le 4ème hidjri siècle, en présentant la quiddité de la poésie et sa fonction chez abd elkarim elnahchali à travers son œuvre "el moumtiê fi îlme elchiêr wa aêlamih"

La recherche contient une introduction qui présente la quiddité de la poésie dans les anciens et les nouveaux dictionnaires et chez les musulmans

au début de l'islam, la quiddité de la poésie et sa fonction à travers l'induction des textes de l'œuvre et une conclusion. Et comme résultat, elnahchali est un grand critique et son œuvre est une encyclopédie très intéressante pour les spécialistes/

المقدمة:

الحديث عن الشعر والنقد في التراث العربي القديم حديث ذو شجون؛ فهو شيق ممتع لا يُملّ حيناً ومستثقل مقرف حيناً آخر؛ شيق عند المقتنعين بكون هذا التراث يكشف عن إبداع أصيل لا يقل أصالة في رواه وفكره عما أثر عن بقية الأمم الأخرى عبر التاريخ، بل قد يجد المتوسم فيهما وفي الشعر خاصة من القيم التعبيرية والجمالية والخلقية ما يجعله يمتاز في كثير من الأحيان عما عند تلك الأمم أو يضاهيه. وهذه حقيقة الشعر العربي جاهليه وإسلاميه، شعر عبر عن الحياة بكل ألوانها، وعن الإنسان في كل أحواله وظروفه. ومستثقل عند غير المؤمنين بدوره وأصالته، ممن لم يتعمقوا فهمه ودراسته، أو ممن تلقوا أحكاماً ارتجالية من قبل ذوي النزعات المغرضة.

والبحث محاولة لتتبع ماهية الشعر ووظيفته في التراث النقدي المغربي القديم، من خلال النصوص التي تضمنها كتاب "المتع في علم الشعر وعمله" لعبد الكريم النهشلي (ت405هـ). والكتاب مشهور يعد من الكتب الأدبية والنقدية الأولى في

المغرب العربي، من حيث الظهور والأهمية في مجال الأدب والنقد.¹ والمنهج المعتمد في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي.

أ . الشعر في المعاجم القديمة:

يقول الجوهري عن الشعر: "والشعر: واحد الأشعار، والشاعر جمعه شعراء على غير قياس، وقال الأخفش: الشاعر مثل لابنٍ وتامِرٍ أي صاحب شعر، وسمي شاعرا لفطنته، وما كان شاعرا ولقد شعر بالضم وهو يشعر، والمتشاعر الذي يتعاطى قول الشعر"². ورد في لسان العرب " الشعر منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعرا من حيث غلب الفقه على علم الشرع والعود على المنديل، والنجم على الثريا، ومثل ذلك كثير. وربما سمو البيت الواحد شعرا؛ حكاة الأخفش ،قال ابن سيده وهذا ليس بقوي إلا أن يكون من باب تسمية الجزء باسم الكل...وقال الأزهري: الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها والجمع أشعار وقائله شاعر لأنه يشعر ما لا يشعر غيره، أي يعلم...وسمي شاعرا لفطنته."³

نفس التعريف السابق أثبتته الزبيدي في معجمه مضيئا إليه: "وعلل صاحب المفردات غلبته على المنظوم بكونه مشتقاً على دقائق العرب وخفايا أسرارها،

¹ - محمد اليعلاوي، الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي (296 . 365 هـ)، دار الغرب الإسلامي بيروت .لبنان /1986.ص:5

² . إسماعيل بن حماد الجوهري(ت نحو1005م): الصحاح تاج اللغة العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ،دار العلم للملايين، بيروت ط3/1984،مج2،ص699.

³ . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (1232 . 1311 م 630 . 711 هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت لبنان ،مج 4 ص:409

ولطائفها، قال شيخنا: وهذا القول هو الذي مال إليه أكثر أهل الأدب لرقته وكمال مناسبته.⁴ هذا عن ماهية الشعر في المعاجم القديمة، وهي كما رأينا متقاربة إلى حد كبير.

ب. الشعر في المعاجم الحديثة:

جاء في المعجم الوسيط: " الشعر كلام موزون مقفى قصدا، وفي اصطلاح (المنطقيين) قول مؤلف من أمور تخيلية يقصد به الترغيب أو التنفير... والشعر المنثور كلام بليغ مسجوع يجري على منهج الشعر في التخيل والتأثير دون الوزن .."⁵

يبدو على تعريف المعجم الوسيط تأثر أصحابه بالتعريفات الفلسفية المأثورة عن الإغريق والفلاسفة العرب، في اعتبار النثر الزاخر بالخيال شعرا، وكذا في قيام الشعر على التخيل . كحازم القرطاجني (المتوفى 684هـ 1285م) الذي عدّ الشعر قائما على التخيل : " وليس يعد شعرا من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام مخيل."⁶ وقد ذهب إلى ذلك قبله كل من الفارابي وابن سينا.

⁴ محمد مرتضى الزبيدي (1792 . 1790م): تاج العروس من جواهر القاموس ،تحقيق:مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت،1973، ج 12، ص 178.

⁵ . إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط ،دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط2، ج1ص 484.

⁶ . أبو الحسن حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتح محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان ، ط/ 2 ، 1981 ، ص 63.

أما عن معنى " الشعور " الذي قال بعض اللغويين عنه بأنه مصدر اسم "الشاعر" وقائله شاعر لأنه يشعر مالا يشعر غيره.⁷ فهو كما قال يوسف الخياط: " معرفة النفس لذاتها أو معرفة النفس لما تخبره...، وفي مدرسة التحليل النفسي هذا الجانب من النفس أو من الشخصية الذي لا يمكن أن يصبح شعوريا إلا بالتحليل النفسي ، ويتكون من المعاني البدائية التي لم تكن قط شعورية، ومن الميول والرغبات والخبرات المكبوتة ولا يمكن معرفة مضمونها بطريقة مباشرة بل بواسطة تأويل الترابطات الحرة والأحلام."⁸

إن ماهية الشعر في اللسان العربي تكاد تكون واحدة، لأن دلالة الكلمة الأصلية (شعر) فرضت عليهم ذلك التطابق أو التقارب، وظل الأمر كذلك حتى بدأ الاتصال بالفكر الفلسفي، غربيّه وشرقيّه؛ حيث بدأ يدخل على تلك الدلالة أو الماهية بعض التغيير الحذر حيناً والجريء أحياناً أخرى، وفي خضم تلك الرغبة في التغيير أصاب بعض الدارسين في تعاريفهم مثل جبور عبود، وأبهم البعض الآخر مثل سعيد علوش الذي أرى في تعريفه بعض القصور وذلك لربطه الشعر بالواقع الملموس، أو حين جعل الشعر يبحث عن أفكار أصيلة تتعلق بالإنسان والكون، فصير الشعر عملاً

⁷. ابن منظور ، لسان العرب ، مج 4 ، ص 410.

⁸. يوسف خياط ، معجم المصطلحات الفنية والعلمية ، دار لسان العرب ، بيروت لبنان ، مج 4 ، ص:357 .

فكريا بحتا "9 و قد فسر ابن سينا الدافع إلى الإبداع ب" الالتذاذ بالمحاكاة وحب التأليف المتفق والألحان. "10

ج . ماهية الشعر عند مسلمي صدر الإسلام :

عرف العرب الجاهليون . كغيرهم من الأمم . النقد الأدبي فمارسوه على فنونهم ومعارفهم ، وليس يهمننا من نقدهم ذلك . في هذا الموضوع . إلا ما تعلق بفن الشعر . فالعرب أهل شعر وفصاحة وبيان، والشعر فنُّهم المفضل، تغنوا به في حلهم و ترحالهم، في سلمهم وحربهم، وفي كل ظروفهم وأحوالهم، فتحوا له الأندية والأسواق الموسمية، كما فتح الملوك له أبواب بلاطاتهم وقصورهم، مجزئين العطاء للمتألفين فيه من الشعراء، ويندر أن يخلو قصر ملك أو أمير أو وزير من شاعر رسمي يخلد مآثرهم وأيامهم، كما تنافس الأعيان والوجهاء في الفوز بمدائح تعرّف بأمجادهم، وتخلد مآثر قبائلهم. لذلك قالوا: " الشعر ديوان العرب " . وقد عبر رسول الله . صلى الله عليه وسلم عن تعلق العرب بالشعر بقوله: " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين."11

ومما لا شك فيه أن النقد . على أي صورة كان . قد رافق الشعر في كل مراحلها، يستحسن فيقدم ويشيد حيناً، أو يستقبح فيؤخر حيناً آخر، وهذا نوع من التوجيه . والنقد أول أمره كان إيماءاتٍ ومضاتٍ بليغةً بعيداً عن التحليل والتعليل إلا نادراً،

9 . د . سعيد علوش ، مجمع المصطلحات الأدبية المعاصرة . عرض ونقد وترجمة المكتبة الجامعية ، الدار البيضاء المغرب 1984 ص :73.

10 . ابن سينا، الشعر . تح :د.عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966/، ص:37.

11 . أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة، بمصر، ط 3 /1383 هـ 1964 ص:30.

مُعتمده في ذلك الذوق الرفيع والعرف المطرد، وقد ظل على تلك الصورة . تقريبا . حتى نهاية القرنين الهجريين ؛ الأول والثاني .فسر ذلك الدكتور محمد مندور بقوله : " فالتعليل أمر عقلي لا يستطيعه إلا تفكير مكون، وكل تعليل لا بد من استناده إلى مبادئ عامة، والعرب لم يكونوا قد وضعوا بعد شيئا من مبادئ العلوم اللغوية المختلفة التي لم تدون إلا في العصر العباسي، ... [ثم خالص إلى نتيجة] إذن فقد ظل النقد في هذه المرحلة إحساسا خالصا ولم يستطع أن يصبح معرفة تصح لدى الغير بفضل ما تستند إليه من التعليل.¹²

وأرى أن كلمة "الغير" في قول مندور إن قصد بها غير العرب من الأجناس المستعربة بفضل الفتوح الإسلامية فمقبولة إلى حد ما، أما إن أراد بها التعميم فيجب التحفظ تجاه الفكرة؛ لأن فيها بعض الإجحاف في حق النقد العربي .ورغم كون النقد إيماءات فقد أدى دورا عظيما، تمثل في بلوغه بفن القول؛ منثور ومنظومه درجة النموذجية التي ظلت تُحتذى وستظل . عبر عن تلك النموذجية أفصح الخلق محمد . صلى الله عليه وسلم . بقوله: " إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحُكْمًا "وقيل "الحكمة"¹³ . تلك السحرية لم تتحقق إلا بفضل النقد الذي رعى فن القول حتى اكتمل، كما رعى ذوق المتلقي بالصقل حتى أوصله إلى إدراك ما في خطاب المبدع من روعة مفارقة لخطاب العامة، في الأسلوب وحسن التصريف . فمحال أن يصل الفن القولي إلى النموذجية من غير موجه، ولا موجه غير الناقد.

¹² . د محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة

القاهرة ، ص 17 .

¹³ . الحسن بن رشيق، العمدة، ص 27 .

لعل السبب المباشر في مجيء النقد الأدبي على تلك الصورة، صورة الإيمان والتلميح، أن ذلك أسمى مدارج البلاغة التي عرف بها العرب، وعرفوها بأنها: "إيجاز الكلام، وحذف الفضول، وتقريب البعيد"¹⁴، أو هي لمحة دالة. و بين النقد والبلاغة علائق تكاملية. يقول الدكتور محمد عبد المطلب: "... ونحترس هنا لنقول إن التفرقة بين الدرس البلاغي والدرس النقدي توهم لا وجود له، فبرغم المحاولات الجزئية للاحتفاظ بإطار محدد للنقد وآخر للبلاغة، برغم ذلك ظل التيار السائد هو تجميع الدرسين في إطار واحد، فالناقد يتعامل بأدوات البلاغة، والبلاغة تضم إليها ما يخص النقد، ومن هنا تجاوزت بحوث الدرسين في معظم المؤلفات النقدية."¹⁵ لعل لفظة التكامل أدل من لفظة التجاور على حقيقة ما بين النقد والبلاغة. كما أن التقاءهما على أفنان الخطاب الأدبي لاستنباط مواطن الروعة والجمال وطّد وقوّى تلك التكاملية. إن الوقوف على ماهية الشعر كلون من التنظير، تعذر الوقوف على شيء منه ذي أهمية يكون قد صدر عن الجاهليين، أو مسلمي صدر الإسلام. ولعل أول محاولة لتعريفه كانت من قبل حسان بن ثابت، الشاعر المخضرم، وشاعر الدعوة المحمدية. قال:¹⁶

إنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيسا وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

¹⁴ . أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، شرحه ورتيبه فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي ، بيروت . لبنان / 1983 ج 2 ، ص :260.

¹⁵ . د، محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 1997.ص:27/ .

¹⁶ . حسان بن ثابت، الديوان، تحقيق د وليد عرفات، دار صادر بيروت، ج 1ص:250.

فالشعر عند حسان هو اللب واللب خالص الشيء، ولب الرجل عقله¹⁷ ومن ثم فالشعر الصادر عن العقل هو العقل نفسه، من باب تسمية الشيء باسم مصدره، وهذا ضرب من المجاز. انطلاقاً من هذا قال الإمام علي . كرم الله وجهه . : " الشعر ميزان القول " ورواه البعض " الشعر ميزان القوم"¹⁸ يعني أنه من خلال ما يقوله الرجل من شعر أو يرويهِ يَقوّمُ عقله وتدرّك مُضمراته. قال في هذا المعنى زهير بن أبي سلمى:¹⁹

وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادته أو نقصه في التكلّم
وباعتبار الشعر لب المرء حرص الشعراء على تنقيح أشعارهم، وهم في ذلك مراتب ودرجات، وقد كان أوس بن حجر و زهير والحطيئة من المبالغين في تنقيح أشعارهم حتى قيل عنهم: " عبید الشعر."²⁰

يُحتمل أن يكون حسان بن ثابت قد أراد باللب العواطف والأحاسيس، والصدق عندئذ يتمثل في صدق تصوير ونقل تلك العواطف والمشاعر. ويكون البيت كذلك إذا لم يخالف مبدأ اللياقة، الذي هو موافقة المعاني الشعرية للمبادئ الأخلاقية والتواضعات الاجتماعية، أو هو الخطاب البريء من التكلف المقيت الذي يمنعه من إحداث أو تحقيق الاستجابة التلقائية في سامعيه أو قارئيه، لأن النص قبل كل شيء تعبير فني متمزج فيه العناصر العقلية بالعناصر العاطفية . ولن أقع في تناقض إن قلت : سيان

¹⁷ . الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، ج 1 ، ص : 131.

¹⁸ . الحسن بن رشيق ، العمدة ، ج 1 ص : 28.

¹⁹ . الخطيب التبريزي ، شرح القصائد العشر ، تح: فخر الدين قباوه ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ط 1979/3 ص 198.

²⁰ . ابن رشيق ، العمدة ج 1 ، ص 133.

أن فسّرت لفظة " اللب " بالعقل أوبا لأحاسيس في بيت حسان السابق، لأن بينهما في الشعر توافق وتلاق، فقد قيل: " إن الشعر لا يقال والنفس خالية، ولا يقرؤ والذهن شروود. "21

إن الشعر العربي معتمد . أساسا . في نشأته على الغنائية التي تتركز على العواطف الذاتية أو الجماعية، قال حسان بن ثابت:22

تغنّ في كلّ شعرٍ أنتَ قائله إنّ الغناء لهذا الشعرِ مضمارٌ

من مفاهيم الشعر القديمة هذا التعريف الذي أثير عن الخليفة عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . " الشعر جزل من كلام العرب يُسكنُ به الغيظُ، وتنفأ به الثائرة، ويُتبلّغُ به القومُ في ناديم، ويُعطى به السائلُ. "23 لقد ركز الخليفة عمر في تعريفه على الأسلوب، فالشعر . قبل كل شيء . أسلوب، وليس أي أسلوب، إنه الأسلوب الجزل، والجزالة كما عرفها الكتاب مناسبة الألفاظ والمعاني للموضوع، ودلالاتها على شخص صاحبها. يقول عبد العزيز المسدي: " إن مدلول الأسلوب ينحصر في تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيز الوجود اللغوي، فالأسلوب هو الاستعمال ذاته، وهو الميزة النوعية للأثر الأدبي ولا يعرف الأثر إلا بما يميزه، والأسلوب هو الذي يقي عملية الخلق من التبدد. "24

21 . منجي الشملي، الفكر والأدب في ضوء التنظير، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 1985، ص: 21.

22 . حسان بن ثابت، الديوان ص: 240.

23 . ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج 5 ص: 281.

24 . عبد العزيز المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت . لبنان، ط 1 / 1983 ص: 43.

فالشعر عند عمر بن الخطاب أسلوب ثم وسيلة يتخذها الفرد والجماعة إلى شتى وجوه الحياة ومطالبها ، ومنه يمكن القول إن نظرة العرب إلى الشعر على بساطتها نظرة واقعية ، فهم قد نظروا إليه على أنه فن ممتع ومفيد ، هذه المفهومية أو النظرة قد ظلت على مدى العصور من بين المحطات الهامة في نقد الشعر .

إن نظرة هؤلاء المخضرمين للشعر لم تكن اعتباطية أو وليدة تخمين أو ارتجال إنما هي وليدة وعي كامل لجوهر الشعر مضمونا وشكلا ، وعيٌ حدا بالشعر إلى الوصول إلى النموذجية التي ظلت تحتذى من قبل الشعراء إلى يوم الناس هذا ، ومن ناحية ظلت المرجعية التي يستخلص منها النقد مفهوم الشعر وعناصره وخصائصه ، ولو قدر لذلك الوعي النقدي أن يدون لكان للنقد العربي شأن آخر . إلا أن بقاء ذلك الوعي من غير تدوين فوّت على النقد أمورا ظلت محل تخمين وجدل بين عدد من الدارسين . وقد كان لابن سلام الجمحي فضل تجميع بعض تلك الرؤى والآراء في كتابه " طبقات الشعراء " .

د . ماهية الشعر ووظيفته عند عبد الكريم النهشلي: □□

كتاب الممتع على أهميته لم يرد فيه تعريف دقيق للشعر . وعليه فمفهوم الشعر عند هذا الكاتب الأديب يمكن استخلاصه من خلال النصوص والأقوال المتعددة والمبثوثة عبر أبواب الكتاب الخمسة عشر . ففي الباب الثاني الذي يحمل عنوان: " في

25 . هو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، ولد بالمحمدية (المسيلة) سميت كذلك نسبة إلى بانيها ، محمد بن عبيد الله المهدي وبها نشأ ، كتب لتميم بن باديس . كان شاعرا مقدا ، عارفا باللغة ، خبيرا بأيام العرب وأشعارها ، بصيرا بوقائعها وآثارها ، تولى التدريس بالقيروان فنهل الطلاب من علمه . روى عنه ابن رشيق . توفي بالقيروان أو المهديّة سنة 405 هـ . من آثاره الباقية كتاب الممتع . (راجع : بشير خلدون ، الحركة النقدية على أيام بن رشيق المسيلي) .

كلام العرب " نجد الكاتب يُنزل الشعر منزلة سامية، فقد جعله في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث الشرف. قال في ذلك: " أفضل كلام وأعزه وأكرمه، وأعظمه بركة، وأعوده بصالحه، كتاب الله العزيز... ثم خير كلام العرب، وأشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب، وتجذُلُ به النفوس، وتُصغي إليه الأسماع، وتشحذُ به الأذهان، وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار."²⁶

إن شرف الشعر كفن قولي مشروط عند النهشلي بمدى ما يحققه من ارتياح للقلوب، وجذُل للنفوس، وهذا جانب إمتاعي، ويمدى ما يحققه من النفعية المتمثلة في شحذ الأذهان مما قد يعترها من الغفلة، أو البله وكثافة المزاج، وفي تثقيف الفرد والمجتمع، وحفظ المآثر والأمجاد، إذ الشعر ديوان العرب، والشعر الذي لا يجمع بين الغائتين يستثنى من ذلك الشرف والفضل.

يؤكد ابن شرف مبدأ الجمع بين الإمتاعية والنفعية بقوله . وهو بصدد تفسير نشأة الشعر عند العرب . : "أصل الكلام منشور، ثم تعقبت العرب ذلك، واحتاجت إلى الغناء بأفعالها، وذكر سابقها ووقائعها وتضمن مآثرها، إذ كان المنطقُ عندهم هو المؤدي عن عقولهم، وألسنتهم خدْمُ أفئدتهم..."²⁷ هذا القول يؤكد الرأي القائل بقيام الشعر العربي على الغنائية²⁸ والغناء مرتبط باللحن والإيقاع، واللحن معتمده الأساسي الوزن الذي يكوّن موسيقى الشعر الخارجية منها والداخلية .

²⁶ . عبد الكريم النهشلي ، الممتع في علم الشعر وعمله ، تقديم وتحقيق الدكتور منجي الكعبي .
الدار العربية للكتاب . ليبيا . تونس / 1978 ، ص 11 .

²⁷ . المصدر السابق . ص 12 .

²⁸ . ذكر ابن رشيق أن غناء العرب قديما كان على ثلاثة أوجه ؛ النصب ، والسناد ، والهزج .
فأما النصب فغناء الركبان والفتيان ، وكان أصل الحداء ، وكله يخرج من أصل الطويل في

إن الغناء مرتبط بالذات، والذات مفعمة بالعواطف، فما من لحن إلا وقد كانت وراءه عاطفة ما؛ فرح أو حزن، اطمئنان أو خوف، حب أو كره أو غيرها.

من خلال هذا القول نستخلص عنصر الوزن الذي هو عند الكاتب من العناصر الأساسية المكونة لمفهوم الشعر وماهيته، لأن الوزن يجعل الكلام أكثر علوقاً بالنفس، وأبقى في ذاكرة الزمن من غيره. يؤكد هذا قوله: "لما رأيت العرب المنثوريند عليهم، وينفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم تدبروا الأوزان والأعاريض فأخرجوا الكلام أحسن مخرج، بأساليب الغناء فجاءهم مستويا، ورأوه باقيا على مر الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعرا والشعر عندهم الفطنة، ومعنى قولهم: "ليت شعري" أي ليت علمي.²⁹

إن هذا القول يلتقي مع سابقه في تأكيد قيام الشعر على أساس الغنائية التي أملتها. حسب رؤية الكاتب. الرغبة في تخليد المآثر والمناقب، إلا أن الذاتية طغت على القول الأول؛ ذلك لكونه جعل التلغني بالمفاخر غاية في حد ذاتها، نظرا لميل النفوس إليه بالفطرة. في حين نرى قوله الثاني قد طغى عليه الوعي المادي؛ حيث فسر قيام الشعر على أساس الرغبات المادية قط، وعليه. حسب تفسير الكاتب. يمكن الاستغناء عن الشعر فيما لو وجدت الوسائل المادية التي يتم بواسطتها حفظ تلك

العروض. وأما السناد فالتقيل ذو الترجيع، الكثير النغمات والنبرات، وهو طرائق. وأما الهزج فالحفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمارة فيطرب. ويقال إن أول من أخذ في ترجيعه الحذاء مضر بن نزار، سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يرجع: وإيداه، وإيداه، وكان أحسن خلق الله صوتا، فأصغت الإبل وجدت في السير. العمدة تح: محمد محي الدين، م السعادة بمصر، ط3/1383هـ-1964م، ج2، ص313 314

²⁹. المصدر السابق.ص.24.

المآثر والأمجاد والأخبار وغيرها. وهذا مغاير للواقع، بدليل أن شعوبا وأمما كثيرة أتاحت لها وسائل حفظ ما ذهب إليه الكاتب ولم تستغن عن الشعر، ذلك لأن البواعث على قول الشعر متعددة كتعدد الغايات منه.

لقد حاول الكاتب تفسير نشأة الأوزان الشعرية فذهب إلى أن الناس تدبروها بالفكر وحددوها ثم نسجوا على منوالها وأنغامها أشعارهم، وهذا خلاف ما ذهب إليه الدارسون قديما وحديثا من أن هذه الأوزان استنبطت من أشعار الجاهليين وأشعار الإسلاميين في القرن الأول والثاني الهجريين، على يد علماء اللغة من أمثال الخليل³⁰، والأخفش³¹.

في حديث الكاتب عن الوزن والقافية التفاتة جديرة بالتنويه، فقد ذهب إلى أن الوزن يحقق للكلام ميزة الاستواء، هذا الاستواء الذي يتمثل بدءا في تناسب وتناسق الحروف المكونة للكلمة، ثم في تناسق الكلمات في العبارة أو في البيت، والعبارات بدورها تتناسق في الرسالة أو الخطبة، والأبيات في القصيدة، هذا التناسق يفرضه النغم المتولد عن الوزن. وأعتقد أن هذا الاستواء يلمح إليه قوله هذا " وأجمعوا على استحسان الكلام مع الصواب، كما أجمعوا على كراهية الكلام مع الإسهاب، وكرهوا

³⁰ . الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي توفي نحو سنة 180هـ 786م . جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2/1978م، مج 1، ص 427.

³¹ . الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي توفي نحو 221 هـ . موسى الأحمد نويوات: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط3/1983 ص 69.

زيادة المنطق على الأدب، وزيادة الأدب على المنطق، حتى قالوا: "زيادة منطق على أدب خدعة"، وزيادة أدب على منطق هجنة...³²

إن هذا التوازن الذي يحبزه الكاتب بين الفكر والعاطفة من الأمور التي تحقق للنص الأدبي الفعالية والأثر الحسن، إذ التفاعل النفسي لا يتحقق إلا مع النصوص المتميزة بحسن الصياغة وجزالة الأسلوب وحسن التخييل.

يرى النهشلي أن الشعر معناه الفطنة والعلم، وهو في ذلك إتباعي للدلالات المعجمية لكلمة شعر، وهي مطردة حتى في المعاجم القديمة والحديثة، والاتباعية في هذا لا تنقص من قدر الكاتب شيئاً، وإنما تدل على مدى إلمامه واتصاله بالتراث النقدي واللغوي، وتكشف عن مفهومه السليم للشعر من جانبه اللغوي بكل إحياءات لفظة "فطن" التي لاشك أنها تختلف في بعض دقائقها من كاتب لآخر.

بعد أن تحدث النهشلي عن الوزن من جوانبه الإمتاعية بفضل ما يضيفه على النص من رونق وغنائية، انتقل إلى الحديث عن بعض ما قد يسببه الوزن للشاعر من حرج، قد يصل إلى حد الخروج عن بعض قواعد اللغة أو عن بعض أعرافها، وقد هَوّن من ذلك أو حاول رفع ذلك التحرج بقوله: " وذكروا أن البلاغة إذا وقعت في المنثور والمنظوم، كان الشاعر أعذر، وكان العذر على صاحب المنثور أضيق، وذلك أن الشعر محصور بالوزن، محصور بالقافية، والكلام ضيق على صاحبه، والمنثور مطلق غير محصور، فهو يتسع لقائله."³³

هكذا يعذر النهشلي الشعراء في بعض التجاوزات لقواعد اللغة والتي تلجئهم إليها ضرورة الوزن والقافية، اللذين قد يستعصيان على كثير من الشعراء المبتدئين أو

³² . عبد الكريم النهشلي ، الممتع في علم الشعر وعمله ص:12 .

³³ . المصدر السابق. ص: 31 .

غير المطبوعين، ممن يتعاطون الشعر كصناعة تكتسب بالدربة والمران. بين ذلك بوضوح ابن طباطبا حين قال . في سياق تعريفه الشعر: "... فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض..."³⁴

إن النهشلي برؤيته هذه للوزن والقافية يكون قد مهد لما ظهر بعد حوالي عشرة قرون من ثورة على الوزن المنتظم المتمثل في بحور الشعر، وعلى القافية والروي باعتبارهما من معيقات التعبير التلقائي عن التجارب الشعرية لدى كثير من شعراء العصر الحديث. فظهرت بناء على ذلك الدعوة إلى الشعر الحر أو ما يسمى بالشعر الحديث أو شعر التفعيلة.

إن الشعر عند النهشلي هو : كلام موصوف بالشرف يبعث النشوة في النفوس والارتياح في القلوب ، بفضل ما يتوفر عليه من وزن وقافية وغنائية وحسن صياغة، يعتمد لتحفيز الهمم وشحن الأذهان ، وحفظ المآثر والأمجاد.

إن مفهوم النهشلي للشعر مستمد من التراث النقدي الذي ثقفه بكل أبعاده، فجاءت رؤاه مؤسسة. من ذلك وصفه للشعر بالشرف فهو مؤسس على مواقف النبي . صلى الله عليه وسلم . من الشعر والشعراء، وكذا على آراء صحابته . رضوان الله عليهم . وآراء السلف الصالح من رجال الأدب و العلم. فقد ذكر أن النبي . صلى الله عليه وسلم قال للعلاء بن الحضرمي :

هل تروي من الشعر شيئا ؟ فانشده :

حيّ ذوي الأضغان تسبّ قلوبهم
تحيتك الحسنى وقد يُرْقِعُ النُّعْلَ

³⁴ . د ، رجاء عيد ، التراث النقدي نصوص ودراسة ، منشأة المعارف . الإسكندرية /1983 ص

فإن دَحَسُوا بِالْكَرِهِ فَأَعْفُ تَكْرُمًا وإنِ خَنَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ
فإن الذي يؤذيك منه سَمَاعُهُ وإن الذي قالوا وراعتك لم يُقَلْ

فقال النبي . صلى الله عليه وسلم . : " إن من الشعر لحُكْمًا. "35

إن إشادة النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الأبيات، إنما لشرف معناها ونبيل مقصدها، فهي دعوة إلى حسن معاملة ذوي الأحقاد من الحساد، ومبادرتهم بالتحية والسلام، فذلك جدير باستلال أحقادهم وأضغانهم، والتمثيل الذي تضمنه البيت الأول رائع؛ قد يَرْتَقِ النعل المقطع وينتفع به. كذلك أمر هذه الفئة قد تصلحها المعاملة الطيبة. فالأبيات دعوة إلى الترفع عن بغض المبغضين تكريماً وترفعاً عن مقابلة السفه بمثله. وجدير بمثل هذه الأشعار أن تحرز الشرف والإعجاب.

من أقوال عمر بن الخطاب . رضي اله عنه . التي أوردها النهشلي والتي تؤكد شرف الشعر قوله : "نعم ما تعلمته العربُ الأبيات يقدمها الرجلُ أمام حاجته ، فيستنزل بها اللئيم، ويستعطف بها الكريم."36 إن مثل هذا الترغيب في رواية الشعر من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليكشف عن أهمية الشعر وشرفه في المجتمع العربي، وهذا انطلاقاً من الدور الذي يلعبه على جميع أصعدة الحياة.

ومن الأخبار الماثورة عن السلف الصالح و التي ساقها النهشلي لدعم مبدأ شرف الشعر ذكر أن " عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن عباس . رضي الله عنه . قصيدته الشهيرة :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتِ غَادٍ فَمُبَكَّرُ عَدَاةَ غَدٍ أُمِّ رَائِحٍ فَمُهَجَّرُ

35 . عبد الكريم النهشلي ، الممتع ، ص:31 .

36 . المصدر السابق ص:28.

وهي ثمانون بيتا ، وكان عنده نافع بن الأزرق الخارجي يسأله عن أشياء في العلم ، فقال نافع : لله أنت يا ابن عباس؛ أنضربُ إليك أكبادَ الإبل نسألك عن الدين،³⁷ فتعرض . وكان نافع قد أمّله بكثرة سؤاله . ويأتيك غلام من قريش فينشدك سَفَهَا فتسمعه، فقال : تالله ما سمعت سفها، فقال أما أنشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيخسر 14

فقال : ما هكذا؛ إنما قال: "فيضحى وأما بالعشي فيخسر " قال أو تحفظ الذي قال؟ قال والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه، ولو شئت أن أردّها لرددتها، قال فارددها، فأنشدته إياها . فقال : ما رأيت أروى منك؛ فقال ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من علي.³⁸

إن إيراد مثل هذا الخبر ليدل على رغبة النهشلي في توطيد مبدأ عدم التحرج من رواية الأشعار وإنشادها بما في ذلك المتعلقة بالغزل، ذلك التحرج الذي بدأ يساور أو يداخل نفوس بعض المؤمنين منذ فجر الإسلام بدرجات تختلف من بيئة إلى أخرى ، ومن نفس إلى نفس . وما تعجّب نافع بن الأزرق من عبد الله بن عباس، لسماعه قصيدة عمر بن أبي ربيعة وحفظه إياها إلا دليل على اطراد ذلك التحرج. بل قد رأى في تلك القصيدة بعض السفه ، مثل ما تضمنه البيت " رأيت رجلا ... وأما بالعشي

³⁷ . عارضت الشمس :ارتفعت حتى تصير في حيال الرأس ، ويضحى :من ضحيت ضحى: عرقت . فيخسر: ألمه البرد في أطرافه، والخصر بالتحريك : برد العشي ، والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة ، ويقابله الغداة ويقال لهما الأبردان أ و البردان . د، شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان ، ط 6 / 1983 ص:399

³⁸ . النهشلي ، المصدر السابق . ص40، 41 . أنظر أيضا : الدكتور شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام. ص:372.

فيخسر" حيث تضمن البيت دأب عمر بن ربيعة على طلب الملذات واقتناصها ليلا ونهارا ، لا يرده عنها حرّ ولا قرّ، على الرغم مما أورثه ذلك من ضعف ونحول. فهو قد " أَلَفَ الأسفار تتقاذفه الفلوات فهو أشعث أغبر، أضمرته هذه الأرضون يقطعها فإذا هو هذا الفتى النحيل الذي لا ظل له إلا هذا الظل الضئيل يستره رداؤه عن ظهر مطيته. "39

فالقصيذة إلى جانب تصويرها لمغامرات ابن أبي ربيعة وما فيها من ترويع للنساء بتلك الزيارات المفاجئة التي قد تسفر عن فضيحة ... [وقد ختم تلك المغامرة بقوله] :

فبتّ قريّر العينِ ، أُعْطِيتُ حاجتي أقبَلُ فاها في الخلاءِ فأكثر⁴⁰

لمثل هذه المضامين التصويرية للمتعة الحسية والعواطف الملتهبة تعجب نافع بن الأزرق من سماع ابن عباس لها، ومن حفظه لها كان أعجب.

ومما يدخل في مفهوم الشعر ويبين فضله هذه الموازنة أو المفاضلة التي أجراها النهشلي بين الشعر والنثر، أو لنقل بين الشاعر والخطيب. قال: " والشاعر عند العرب أفضل من الخطيب، وكانت تهناً بالشاعر إذا نبغ إلا أن المحدثين أخرجوه عن حده وجعلوه مكسبا حتى قالوا: الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدنيء، وكانت العرب تأنف عن الطلب بالشعر. "41 فتفضيله للشاعر على الخطيب، الذي يستوجب - غالبا - أن يكون من عليّة القوم وسراتهم إنما لما يؤديه الشعر من أدوار جليّة .

39. د. شكري فيصل ، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ،ص401.

40 . المرجع نفسه ، ،ص.401

41 . عبد الكريم النهشلي:المتع،ص 337.

خاتمة:

نستخلص مما تقدم أن الشعر عند عبد الكريم النهشلي كلام موزون مقفى يتسم بالاستواء والشرف؛ الاستواء الذي هو حسن الصياغة واستقامتها لفظاً ومعنى ووزناً وقافية . كما أنه فن قولي شريف، يتعلق بالتجارب الإنسانية، إلى جانب ما نيط به من أدوار ومهام جليلة، قد لا تؤديها الفنون القولية الأخرى . لأن للشعر التياض بالقلوب ، ومدخل لطيف إلى النفوس.

إن النهشلي في حديثه عن الشعر يصدر عن خلفية ثقافية هائلة تتم عن مدى الإلمام والتصور الكامل لهذا الفن وأدواره، وهو أمر طبيعي لأن الفكر النقدي العربي في المشرق وفي المغرب يستقي من ينابيع واحدة؛ فالعقيدة واحدة، والتراث كذلك. ومنه توافقت القيم الفنية والجمالية. كما أن الفكر الفلسفي الذي اتصل به العرب في المغرب وفي المشرق يكاد يكون واحداً أو على الأقل متقارباً. وهو الأمر الذي جعل التقارب بين علماء المشرق والمغرب في الرؤى والمذاهب الأدبية كبيراً.

إن الرؤى التي ضمنها النهشلي كتابه لتدل أن العبقرية ليست مقصورة على بلد أو حكر على قوم، كما توهم البعض. إنما هي ملكة مشاعة في الإنسانية جمعاء. والنهشلي واحد من أعلام المغرب في الشعر والأدب والنقد، تطرق إلى كل عناصر الشعر، وكشف عن فهم سليم لكثير من قضايا الشعر، كالوزن والقافية، وما يسببانه من حرج للشعراء، حرج قد يصل أحياناً حد الخروج عن قواعد اللغة.

كما أبدى فهماً متقدماً لدور الشعر ووظيفته، موفقاً في ذلك بين الإمتاعية والغائية، فهم لا يصدر إلا عن شخصية وهبت ملكتي القريض والنقد.

إن كتاب الممتع جدير بأن يصنف ضمن الكتب الأمهات في الثقافة العربية الإسلامية. كونه أول كتاب مغربي تعرض للشعر بالدراسة والنقد. والدفاع عنه، أمام

مزاعم الزارين به المقللين من شأنه، الرافعين شأن الكتابة والكتاب. هذه النزعة الدفاعية عن الشعر هي التي كانت وراء إسهاب الشاعر في إيراد الأخبار والأقوال التي من شأنها أن تكرر أهمية الشعر، كما رآها الكاتب، ويراهها محبو الشعر طبعاً أو ترغّباً، كما ترفع التحرج من قوله وروايته؛ ذلك التحرج الذي تولد لدى كثير من الشعراء المسلمين حذراً من أن يطالهم الوصف الوارد في سورة الشعراء: "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك رُوا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون"⁴².

وقد يكون ذلك التحرج وراء ندرة الشعر المغربي في القرن الأول؛ وقلته في الثاني، بدليل غلبة الاتجاه الديني على ما أثر عن تلك الحقبة من الأشعار. هذه هي ماهية الشعر عند النهشلي، وهذه بعض أدواره ووظائفه، قد ألم بها وبأبعادها، وخلق به ذلك؛ لأنه الشاعر الأديب، والكاتب الناقد.

المصادر و المراجع

- 1- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط. 2.
- 2- ابن سينا: الشعر، تح: عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة. 1966.
- 3- ابن عبد ربه: العقد الفريد، شرحه ورتب فهارسه، أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم

⁴² الشعراء ، الآيات 224 . 227

الأبياري، بيروت لبنان. 1983

- 4- ابن منظور: لسان العرب. دار صادر. بيروت .
- 5- أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تح محمد الحبيب بن الخوجه . دار الغرب الإسلامي. بيروت ط2/ . 1981
- 6- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة العربية. تح أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين. بيروت ط3 / 1984 .
- 7- الحسن بن رشيق: العمدة، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ط3/1383 هـ 1964م.
- 8- الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، تح فخر الدين قباوه، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3./ 1979.
- 9- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر ط2/1371 هـ 1952.
- 10- بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر. 1981
- 11- حسان بن ثابت: الديوان، تح د. وليد عرفات، دار صادر بيروت. 1
- 12- د. رجاء عيد: التراث النقدي نصوص ودراسة، منشأة المعارف . الإسكندرية، 1983
- 13- سعيد علوش: مجمع المصطلحات الأدبية المعاصرة، المكتبة الجامعية الدار البيضاء، المغرب. 1984
- 14- د. شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان ط6./ 1983
- 15- عبد العزيز المسدي: النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط3 / 1198.

- 16- عبد الكريم النهشلي: الممتع في علم الشعر وعمله، تقديم وتح: منجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس. 1978
- 17- محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي. دار الغرب الإسلامي بيروت، 1986.
- 18- د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، ط1/ 1997.
- 19- د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون، ط1/ 1997.
- 20- د. محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة. 1974.
- 21- مرتضى الزبيدي : تاج العروس في جواهر القاموس. تح مصطفى حجازي. مطبعة حكومة الكويت. 1974. ج. 12.
- 22- منجي الشملي: الفكر والأدب في ضوء التنظير، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان. 1985.
- 23- موسى الأحمد نويوات: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط3/1983.
- 24- يوسف خياط: معجم المصطلحات الفنية والعلمية، دار لسان العرب، بيروت، لبنان.